

## آثارنا في المتحف البريطاني شهود عيان على دموع العراقيين وغربتهم



### عراق مصغر في قلب لندن

#### لندن . دلال جويد

لم يعد القائمون على المتحف البريطاني في لندن يستغربون مشهد الدموع العراقية التي تذرف أمام آثار العراق القديم التي تحتويها قاعات المتحف المخصصة لها، فقد كانت وما زالت تلك الدموع هي ردة الفعل الأولى لكل عراقي يواجه حضارة بلاده بعظمتها وقوتها التي تتحدى الزمن وتقف شاخصة لآلاف السنين، متحدثة عن مدن وأبطال وشعوب عاشت هناك وتركت آثارها لتعبر القارات وتستقر في بلدان لا تمت لها بصلة سوى احترام الحضارة وتقديرها.

المتحف البريطاني هو الجهة الأكبر التي تحتوي قطعاً أثرية من الحضارة العراقية خارج العراق، حيث تنوعت مقتنياته بين حضارة السومريين والاشوريين والبابليين، وخصصت قاعات كاملة لعرض تلك الآثار التي مثلت مواقع مدن عراقية قديمة ذكرت في كتب الاديان من ضمنها النمرود ونيوى وخورآباد، وشملت قطعاً ضخمة من الآثار مثل الاسد الملكي في القاعة 10 الذي عثر عليه في قصور الاشوريين في النمرود ونيوى، والمكتبة الملكية لأشور بانبيال وبوابة بلاوات، وكذلك ضمت الكوز السومرية التي عثر عليها في المقبرة الملكية لاور، والرقم المسماية والثورين المجنحين، حيث يضم المتحف حوالي 130 ألف قطعة أثرية لحضارة ما بين النهرين.

وللعراقيين المقيمين في لندن تجربة حميمة مع المتحف البريطاني، فالقاعات العراقية تمثل لهم وطناً صغيراً قديماً يزورونه كلما عصفت بهم الشوق إلى العراق، وهم يعبرون عن مشاعر متضاربة بين الفرح بتلك الآثار والفخر بها والحسرة على وجودها خارج العراق بعيداً عن مكانها الطبيعي، فالفنان المسرحي والاعلامي المعروف فلاح هاشم يتحدث عن زيارته الأولى للمتحف قائلاً "كنت مثلهاً لمشاهدة الآثار العراقية في المتحف البريطاني، وكنت قد سمعت وقرأت عنها سابقاً، وحين دخلت الجناح، بل الأجنحة التي تضم تلك الروائع العراقية ذهلت حقاً، وأخستني الدهشة أمام الثيران المجنحة بحجمها الكبير، صرت اتلمسها لأتأكد من انها من حجر حقاً، كيف تسنى لهم نقلها؟ وكيف طارت الى هنا عبر القارات؟ وما هذه الروعة في نحتها؟ وكذلك الريليف الممتد على امتداد جدران بأكملها ودقة النحت، وبعد تجولي بين اللقى الأثرية الوافدة من وطني الى هنا، بدأت عندي أحاسيس شتى ذات طابع حزين، فقد أحسست بأننا سُرُقنا، وهذا شعور انتاب كل عراقي صادفته ممن شهدوا تلك الآثار، وقد تكررت زيارتي و تأملاتي بعدها . لكنني بعد أن حدث ما حدث من نهب و تدمير للآثار العراقية إثر سقوط النظام السابق، صرت ازورها بفرح غامر، وأحس بأن هذا هو المكان الذي يجب أن تبقى فيه حتى في المستقبل، لسببين : الأول هو

أنها في مأمّن ومناى عن أي تخريب أو نهب جديد. و الثاني أن لندن عاصمة كبرى يؤمها ملايين السياح سنوياً و يطلعون على حضارتنا وتاريخنا الذي نعتز به . هذان السببان غير متوفرين في العراق، ولا يبدو أنهما سيتوفران في المستقبل القريب. و ربما في المستقبل البعيد حين تستقر الأوضاع في العراق، ويتوفر فيه الأمان والوعي بأهمية هذه القطع الانسانية النادرة، حينذاك ربما، سيكون لكل حادث حديث. أما القاص والصحافي عبد جعفر فيقول "بعد وصولي لننن أواخر العام 1990، كان أول شيء ، زرت المتحف البريطاني، ورؤية الجناح العراقي. عندما دخلت المكان، إنتابني شعور متناقض من الفرح والحزن في آن واحد، فرحت لأنني لأول مرة بعد خروجي من العراق العام 1979 أرى شيئاً من وطني، ألمسه، وأتحدث اليه، وألتقط الصور معه أيضاً، وكنت فخوراً أن أرى الزوار وهم معجبون بحضارة الإنسان العراقي، وأخبرهم أنا أيضاً من هذه الحضارة، وأخبرهم كيف صنع الفنان القديم من الطين ألواحاً ورسومات خالدة، من النخلة السومرية، والعجلات التي تجرها الخيول، والألوهة وهم يباركون الخصب، وصولاً الى الغطاسين وهم يضعون قريات مليئة بالهواء للوصول الى الأعماق، كيف عرفوا ذلك لا أدري!. وعلى الجانب الآخر أحزني أن هذه الآثار كثيرة وبعيدة عن أهلها، منفية مثلنا، كما أخبرني أحد الأساتذة العراقيين العاملين في المتحف، مئات الصناديق التي تحتوي على آثار عراقية لم تفتح ولم يجر تصنيفها بعد، موجودة في مخازن المتحف، هل هي منفية حقاً؟ أم محمية مثل إنسانها المتشرد من قوانين الغاب التي كانت ومازالت تطارده؟ ألم يقم فنان كبير بتقديم القيثارة السومرية كهدية للديكتاتور، وكأنها جزء من أملاكه؟ ألم يغض المسؤولين في العهد المباد و الحالي النظر على الإتجار بالقطع الأثرية والنهب المستمر لها؟ لماذا لم يقدم الأميركيان على حماية آثارنا والمتحف العراقي من النهب، وهم المسؤولون مسؤولة أخلاقية وقانونية لحماية البلد وثروته؟ نحن حقا في حيرة، بريطانيا تشجع وتدعم السياحة لها من خلال المرافق السياحية ومن ضمنها المتحف البريطاني، ولكنها في الوقت نفسه تحمي آثارنا من الضياع، ونحن نريد أن نستردّها وهذا حقنا، ولكن السؤال كيف؟ ومتى؟ ونحن لا نستطيع أن نحافظ على إنساننا الحي من القتل والتفجيرات والتجاوزات، وقلة الخدمات، وكيف نحافظ على آثارنا ان؟ و(الحي أبدى من الميت) كما يقول المثل الشعبي!. ويطرح المهندس محمد النصار موضوع الآثار العراقية من وجهة نظر أخرى فهو يناقش وعي المجتمع بأهمية آثار العراق والمعرفة بها حيث يقول "سبقتني رد الفعل العاطفي فتحسرت على وجودها في عاصمة لا دخل للعراق بها ولكني استعدت عقلانيتي وفرحت لانها في ايد أمينة تحافظ عليها من التلف والإهمال وحتى السرقة، وفي الوقت نفسه اكتشفت ان اغلب العراقيين يجهلون حضارتهم وان غير العراقي يعرف عنها أكثر من العراقي، وحتى من يعرفها ويعرف قدرها يخشى أحيانا من الترابط الحاصل فيما بينها وبين ايران وتركيا لئلا يتهم بالعمالة لأي من الدولتين، مازال هنالك الكثير من الآثار في العراق لا يعرف اغلب العراقيين منها سوى زقورتي عركوف وأور وبعض آثار بابل ونيوى، وحبذا بدل التخبط الحاصل بحثاً عن هويتنا العراقية، لو تقوم وزارة التربية باستحداث مادة تحت مسمى حضارة العراق لحصة أو حصتين في الأسبوع ضمن المنهاج الدراسي للتعريف بحضارتنا و آثارنا وملوكنا وما صنع العراقي لتلك الحضارات لنتشئ جيلاً واثقاً من نفسه وهويته ومفتخراً بعراقيته وحضارته.

وتروي زينة النصراري "موظفة" تجربتها عند زيارة المتحف للمرة الاولى قائلة " حين شاهدت آثار العراق أمام عيني ورأست تلك التماثيل والرقم الطينية واللوحات التي تصور حضارة بلدي لم اتمالك نفسي من البكاء بحدة حتى لفت الامر أنظار الزوار للمتحف، وفي حينها كانت هناك لافتة تشير إلى منع التصوير داخل القاعة لكنني لم استطع تقبل الامر فتلك آثار بلادي واريد تذكارا منها لذا تحدثت مع الموظفين عن وضعي وقد سمحوا لي حينها بالتصوير تقديراً لانفعالي العاطفي واحتراماً لمشاعري، وصرت اكرر زيارتي للمتحف كي اشعر اني ازور العراق ولو على البعد، واليوم اشعر ان ما انتقل من آثارنا قبل عقود من الزمن هو المحمي في الخارج فهناك متخصصون في حماية الآثار وترميمها يعرفون ويقدرون قيمتها ويحافظون عليها من اي سوء يمكن أن يصيبها.

وللسباب العراقيين ارتباط وثيق بحضارتهم فالعازفة الشابة ليلك الطائي تتحدث عن تجربتها في المتحف قائلة " كانت لحظة سعادة ودهشة غامرة لحظة عشوري أو بالأحرى اكتشافي للقاغات العراقية في المتحف البريطاني. كنت في رحلة مدرسية و لم أكن عارفة بوجود هذه الكمية الهائلة من الآثار العراقية، كُنّا هناك لرسم الغرفة الاغريقية وفي فترة الاستراحة ذهبت لألقي نظرة عشوائية على محتويات المتحف، وكنت وحدي في فترة الاستراحة تاركة أصدقائي يستمتعون بالشمس، وكانَ شيئاً ما كان يناديني، شعوري الأول كان الدهشة والإنبهار، كدث أبكي أو بكيت، وتذكرت طفولتي في المتحف العراقي عندما ذهبت مع والدي، أحببت هذا المتحف حبا غريباً، سحرتني القصص والتماثيل الغامضة، شعرت بالحب الغامض لها مجدداً في المتحف البريطاني، وكأنها جزء مني، تذكرت كذلك لحظة نهب المتحف وحزني الشديد عليه عوداً على السؤال رأبي في وجود الآثار هنا وليس في المتحف العراقي لن يكون عاطفياً على الرغم من علاقتي العاطفية جداً مع هذه الآثار. اذا نظرنا للموضوع بعين مجردة من العاطفة سنرى ان وجودها في بغداد ليس أمينا والايادي العابثة كثيرة والانفجارات لا ترحم. مجرد الاهتزازات حتى

من بعيد قد تسبب أضرارا كبيرة، ربما يكون موطن هذه الآثار هو العراق، ولكن أرى أن وجودها هنا في لندن والاعتراف بها والانبهار وعدد السياح الذين يأتون لرؤيتها شيئا مهما وإيجابيا. رغم حبي الشديد للمتحف العراقي وامنياتي بعودته كما كان اعتقد أنني أفضل وجود الآثار في مكان امين ومحفوظ اكثر، وحتى ان حدثت وعادت هذه الآثار الى مكانها الأصلي، فان وجود بعض القطع في المتاحف العالمية يبقى شيئا مهما لنشر الثقافة والاستمتاع بالسحر الذي تكنه تلك الآثار للعالم أجمع، خصوصا مع صعوبة ذهاب السياح للعراق الان.

أما الفنان المسرحي الشاب حسنين سلام فله رأي مختلف بعض الشيء إذ قال "استوقفتني كثيرا عبارة ( حضارتك ) ! هل هي بالفعل حضارتي ؟ هل لدي حضارة ؟ هل انا ممن بنوا تلك الحضارة ؟ انا لست اشوريا او كلدانيا او بابليا لتكون حضارتي و انا لم اصنع تلك الحضارة، حضارتي هي ما اصنع وانا لم اصنع بالحقيقة، نحن ابناء عشائر عربية دخلت بعد الفتح الاسلامي الى العراق الغزو العربي الذي جاء بالخراب والدمار لكل صور وأشكال الحياة المدنية والحضارية ودمر تلك الآثار البابلية العريقة، نحن ابناء غزاة ونساهم بشكل كبير اليوم في ذلك الدمار الذي لحق الحضارات القديمة من خلال اهمالنا لها و عدم الاحساس بالمسؤولية تجاهها و الحفاظ على ديمومتها و هنا ستكون اجابتي واضحة على النصف الثاني من السؤال، ان تبقى هذه الآثار بيد امينة تشعر بمسؤولية كبيرة تجاهها افضل بكثير من ان تعود الى مكان تحيطه المزابل من كل مكان هذا هو واقع الآثار الان في العراق قمت بزيارة الى هناك قبل عامين وفوجئت بحقيقة بما رأيت، اهمال كبير يصل حد الخراب، وحين أود أن اصف شعوري وانا ازور المتحف العراقي البريطاني لأول مرة ورؤيتي لتلك الآثار هنا هو شعور اي انسان يرى منجزا ابداعيا كبيرا للانسان في هذه الارض وهذا شعوري تجاهها فيما لو كانت في بلدي أو خارجه فهي تبقى انجازا عظيما للانسانية نتمنى ديمومتها والاهتمام بها حتى تصل هذه اليد الى هناك في ما بين النهرين" .

الآثار العراقية الموجودة في المتحف البريطاني ومتاحف العالم الأخرى تمثل ذخيرة كبرى للحضارة العراقية، استمر نقلها على مدى أكثر من قرن ونصف منذ أن بدأت الحفريات تنقب في المواقع الاثرية العراقية، ولكن السؤال الذي يبقى معلقا في الاذهان هل سرقنا؟ أم أن اليد التي امتدت الى تلك الآثار استطاعت أن تحميها من حروب العراق المتعاقبة؟ فأبقت للانسانية ما يمكن أن يؤكد وجود حضارة عريقة راقية ومكتملة ما زال الكثير من اسرارها لم يكتشف بعد.